

ملاح

من تاريخ الحجاز

في أوائل عهد الدولة السعودية الأولى

د. أحمد فؤاد متولى

امتلات منطقة العجاز بالقلال والفتن في أوائل عهد الدولة السعودية الأولى . فقد تميزت هذه الفترة بالصراع المرير بين بعض الأشراف وبعض على منصب الامارة في مكة المكرمة . واتخذ الصراع صورا دامية سجلتها بعض الكتب المعاصرة للفترة ، واشفقت على البلد الحرام من هذه المنازعات التي اتخذت شكلا مسلحا ، ازداد عنفه في بعض الفترات .

وفي هذه الفترة التي اشتد فيها الصراع في العجاز ، ظهر السعوديون في نجد وقويت شوكتهم بسرعة وازداد انصارهم واتباع دعوتهم . وقد عدلهم الأشراف خصوما لهم بل وأعداء للدين الحنيف ، على الرغم من أن الدعوة السلفية التي ناصروها لم تخرج عن تعاليم الاسلام السمحة . وتعد احياء لتعاليم الدين الحنيف وعودة اليها .

ورغم الصراع المرير الذي دار بينهم على منصب الامارة ، الا أنهم اتخذوا بعض الاجراءات العدائية الاستفزازية ضد اتباع الدعوة السلفية . كان من بينها منع الحجاج من أهل نجد من أداء فريضة الحج خاصة في عهد الشريف أحمد بن سعيد (١) .

اما الشريف سرور بن مساعد (حكم ١١٨٦ - ١٢٠٢ هـ) ، فقد اذن للحجاج من أهل نجد بأداء الفريضة ، كما أنه لم يقم بمصادرة نجد في أوائل عهده (٢) . لكنه عاد ومنع الحجاج النجديين فيما بعد (٣) .

وتطالبنا الوثائق التركية براسلات أرسلها الشريف سرور الى السلطان العثماني يحثه على أخذ الحيطة والحذر والبعد في الاستعداد لصد هجوم مرتقب من قبل الوهابيين على الحجاز . ويطالب السلطان بامداده بالمساعدات المادية والعسكرية . لكي يتمكن من صد السعوديين ومقاومتهم (٤) . كما أرسل يطلب مساعدة والي بغداد ثم والي الشام ، لدرء الخطر المنتظر من آل سعود على حد قوله (٥) .

وتشير بعض الكتب التركية الى أن المساعدات لم تأت من أي مكان للشريف سرور ، وباءت مساعيه بالفشل . فقد قوبل طلبه من جانب الدولة العثمانية بالفتور ، حيث اعتقد السلطان أن الخلافات بين نجد والحجاز لا تعدو أن تكون خلافات في الرأي ، لن تؤدي الى اعتداء بين الطرفين . هذا فضلا عن أن الحرب مع روسيا والنمسا والبندقية كانت تشغل الدولة الشاغلة (٦) . كما تهاون والي بغداد ووالي الشام ، وتكاسلا ولم يحرك أي منهما ساكنا ، يدفعهما الخوف والفزع من العواقب (٧) .

وتابع الأشراف سيرة الدعوة السلفية باهتمام وماكانوا كآكثر الناس في ذلك العهد ، يتوقمون لها نجاحا . على أن نظرتهم اليها أخذت تتبدل بعد أن شرقت وغربت ، وضمت معظم مقاطعات نجد اليها وأدخلتها في دائرة طاعتها ، وأنشأت فيها دولة جديدة يحسب حسابها (٨) .

والواقف على تاريخ الأشراف في الحجاز يرى أنه تاريخ سلوة بالدماء والفظائع ، فالشريف منهم لم يكن يتورع عن قتل أخيه وأبناء عموته في سبيل الحكم (٩) .

يورد المؤرخ التركي أحمد جودت باشا (١٠) في المجلد الخامس من كتابه . تاريخ جودت . ما يأتي من الأشراف في الحجاز في عهد الشريف غالب ابن مساعد (١١) :

« سالت دماء غزيرة من جراء الحروب التي وقعت بين الأشراف بعضهم البعض في مكة المكرمة مهبط الوحي الالهي . ولما تهادى أخوة الشريف غالب ابن مساعد أمير مكة المكرمة في الخلاف فيما بينهم في العام الماضي (١٢٠٣هـ) ، جهز كل طرف جنوده ، ونشبت معارك طاحنة ، فسمى قاضي مكة المكرمة ومفتيو المذاهب الأربعة للتوسط بين المتخاصمين ، وتمكنوا من إقامة الصلح بينهم » .

ويغفهم من التحريرات التي وردت الى آغا دار السعادة سنة ١٢٠٤هـ ، أن حربا شديدة دارت بين الشريف غالب أمير مكة المكرمة وابن أخيه الشريف عبد الله داخل مكة المكرمة في التاسع والعشرين من شهر صفر الخير .

وقد نتج عن شدة التراشق الذي استمر ثلاثة أيام متوالية بالبنادق والمدافع المقامة على القلعة ، أن توقف الأذان ، وأعيقت الصلاة تسع عشرة مرة • وقد كسرت قطعة من الحجر الأسود تقدر بعرض ثلاثة أصابع ، من جراء انهيار الرصاص الكثيف الذي أصابه • ثم سقط الحجر كله ، وأعيد الى مكانه بعد انتهاء المارك ، ملصوقا بالكلس المعجون بالزيت • وبعد ذلك تجهر الناس غاضبين ، وقدموا النصيحة للأشراف : « أن قاتلوا خارج الحرم ان قاتلتم كما جرت العادة لديكم قديما ، ثم انهوا خلافاتكم ان حربا أو سلما » •

التجأ الشريف عبد الله الى قبيلة هذيل بجنوده ، ثم دخل مكة المكرمة في جمع غفير مرة أخرى • وعندما نزل بموضع يقال له المعابدة ، خرج الشريف غالب لمقابلته بمساكر كثيرة • ونشب بين الطرفين قتال شديد ، سقط على اثره عدد كبير من الطرفين • ولما لم تحسم المعركة ، انسحب الشريف غالب الى مكة المكرمة ، واستولى الشريف عبد الله على الطائف (١٢) •

ونظرا الى أن الوضع ظل على حاله ، فقد علم أنه صدر أمر عال للشريف غالب ، يقضي بدعوة الخلافات ويوصي برفع الأذى بكل صوره عن فقراء الحرمين الشريفين • وفي نفس الوقت أرسل أمر آخر الى « أوزون (١٣) ابراهيم باشا » أمير الحج لئله على تقديم النصيحة للفرقيتين ودفعهما الى التحلي بضبط النفس ، واصلاح ذات البين (١٤) •

وطبقا لما أورده المؤرخ عبد الشكور أفندي ، حدثت هذه القلاقل منذ أن كان للشريف سرور (المتوفي) أخى الشريف غالب معانين يهدى يحيى سلتوح ، وإذا كان الشريف غالب قد زج به في السجن لتأكد من أنه مجبول على إثارة الفتن والقلاقل ، الا أنه تمكن من الفرار من سجنه بعد مدة ، واختفى في منزل أبناء الشريف سرور • ولما لم يحصل الشريف غالب على خبر له في أي مكان رغم التفتيش الدقيق ، ذهبت به الطنون الى أنه قصد مكانا بعيدا • أما يحيى سلتوح فقد هيا أسباب الفتنة والفساد خفية ، باغرانه للشريف عبد الله ابن الشريف سرور يدعوى الامارة • ومع أن الشريف عبد الله كان طفلا غير بالغ ، حيث لم يصل عمره الثانية عشرة بعد ، الا أنه خدع بكلامه ، وسيطرت عليه فكرة الامارة • وأمر بمحاصرة منزل الشريف غالب واطلاق الرصاص عليه • ثم التقيا في ناحية ، واستمر إطلاق الرصاص بينهما داخل مكة المكرمة لمدة أربعة أيام متوالية بلياليها ، خلت فيها الشوارع من المارة لتعذر المرور ، وتوقفت الصلاة في الحرم الشريف ، حتى لم تقم صلاة احدى الجمع •

وبعد ذلك ، خرج الشريف عبد الله وأخوه الشريف محمد وكثير من الأشراف المناصرين له ، وتوجهوا الى « المعابدة » ، وتجمع يحيى سلنوح وعدد من عبيد الشريف سرور (المتوفي) وأتباعه ، فأعد الشريف غالب عسكرياً وتحرك لمواجهةهم ، وانتصر عليهم ، فمضوا الى الطائف واستولوا عليها ، ثم تحركوا قاصدين مكة المكرمة بقوة كافية جمعوها من عدد من القبائل ، وخرج الشريف غالب من مكة المكرمة ، وانتصر عليهم في المعركة الكبرى التي وقعت في وادي الريان (١٥) ، وقبض على الشريف عبد الله وأخيه ، وفرق جموعهم وجنودهم وشنتها ، ومع ذلك عفا الشريف غالب عن ابني أخيه وعاملهما معاملة حسنة ، حيث خصص لهما الرواتب والتعيينات .

وبعد هذه الهزيمة ، فر يحيى سلنوح قاصدا الشام عن طريق المدينة المنورة ، ولما وصله ، كتب « عرضحال » (١٦) ضمنه المطالبة بتوجيه الامارة للشريف عبد الله ، وقصد الأستانة ، ومع أنه قدم العرضحال المذكور للاعتاب العلنية ، إلا أنه لم يجد استجابة ، فتوجه الى مصر باشا (١٧) ، ويعلق المؤرخ التركي أحمد جودت باشا على هذه الأحداث ، قائلا : « لو كان زمام الأمور في مكة المكرمة انتقل الى ذلك الصبي الصغير ، لساد الفساد وعمت الفوضى في جنبات هذا البلد الأمين مهبط الوحي الالهي » .

الهوامش

- ١ - أحمد السبامي : تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ٣٠٢ - القاهرة ١٩٥٢ .
- ٢ - انظر : « منحة العجلاني : تاريخ البلاد العربية السعودية » ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٣٦ بيروت (د ث) .
- ٣ - انظر أحمد السبامي : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .
- ٤ - انظر الوثيقة رقم ٣٤٥٣ المدونة في متحف طوبقو سراي باستانبول .
- ٥ - انظر الوثيقة رقم ٦٨٢١ المدونة في متحف طوبقو سراي باستانبول .
6. Bir Heyet : Mufasssal Osmanli Tarihi, cilt 5, s. 2703 Istanbul 1962
- ٧ - انظر : أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ص ٩٢ استانبول ١٣٠٣ هـ .
- ٨ - أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، ص ٦٢ ، ٦٣ بيروت ١٩٦٤ .
- ٩ - حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص ١٥٠ القاهرة ١٩٦٧ .
- ١٠ - أحمد جودت باشا : مؤرخ تركي مشهور ، ولد في ٢٧ مارس ١٨٢٢م (١٢٣٧هـ) في لوفينا ببلغاريا ، أيام أن كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية .
- هينه السلطان عبد الحميد الثاني ١٢٩٣ - ١٣٢٧ (١٨٧٦ - ١٩٠٩م) مؤرخا للوفات في وثيقة (وثيقة نويس) ، لم كلفه بكتابة تاريخ للدولة العثمانية .
- بدا المؤرخ كتابه عن التاريخ العثماني في سنة ١٢٧٠هـ ، وسماه « تاريخ جودت » .
- ولد اكمل التي عشر مجلدا ، بدأها من ١١٨٨هـ (١٧٧٤م) الى ١٢٤١هـ (١٨٢٦م) =

= وبعد الكتاب مرجعا هاما في تاريخ الدولة العثمانية في الفترة التي تمتد من ١١٨٨ - ١٢٤١ هـ . لأن المؤلف يذل فيه قصارى جهده معتمدا على الوثائق والمخطوطات التي أتاحها له وتبقيته الرسمية في الدولة ككتائب للوقائع . كما اعتمد على بعض المصادر العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية في كتابة تاريخه .

وقد طبع الكتاب عدة طبعات بالعروفي التركية العثمانية . وقام عبد القادر القندي الدنا رئيس محكمة تجارة بيروت . بترجمة الجلد الأول من الكتاب . وطبعه في مطبعة جريدة بيروت ١٣٠٨ هـ .

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب طبع طبعه حديثا مبسطا بالعروفي التركية الحديثة في خمسة مجلدات . وقد قام دوندار كونداي بتبسيط الكتاب . كما رتبّه ونظمه مؤمن جويك . وصدر في جريدة صباح ١٩٧٢ م .

[انظر مقدمة كتاب

Dündar Cüneyt : Tarihi Cevelet, 5. 1 - 12 Jst 1972]

١١ - أحمد جويك : المرجع السابق . م . ٥ . ص ٣٠ . ٣١ .

انظر :

12. Bir Heyet : Geçen Eser, cilt 5. s. 2703

وانظر أيضا :

Yilmaz Oztuna : Osmanli Tarihi, cilt 11, s. 124 Ist. 1967

١٣ - أوزون : كلمة تركية الأصل معناها طويل .

انظر :

14. Bir Heyet : Aynı Eser, aynı cilt, aynı sayfa

وانظر أيضا :

Ismail Hami Danismend : İzahlı Osmanlı Tarihi

Kronolojisi, cilt 4. s. 85 İstanbul 1972.

١٥ - يقول الدكتور منيع المجلاني في كتابه . في سنة ١٢٠٣ هـ أخرى أحد أنصار الشريف سرور أحد أولاده . وهو الشريف عبد الله بن سرور . وكان صيلا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة . بأن يطلب الشرافة لنفسه . وجمع له ٥٠٠ عيد . وضربوا بالرصاص على بيت الشريف غالب . وأعطوا طرفات مكة أباما . لم تم التقلب عليهم .

(د . منيع المجلاني : المرجع السابق . ج ١ . ق ٢ . ص ١٣٨) .

١٦ - عرضحال : شكوى . تلامذة . اصطلاح عربي الأصل مكون من لفظين :

(عرض) و (حال) .

انظر أيضا :

17. Bir Heyet : Geçen Eser, s. 2704.